أحـــزان الحيـــاة

محمد سعد زغلول سالم

الخميس ٣٠ مايو ١٩٧٤

وفى قلب الليل الصامت الحزين المُبلل بأنداء الأسَى ودموع العاشقين .. وتحت بريق النجوم الذاويَة الحائرة بغير هادٍ فى دروب الكون المظلم السَحيق .. وأمامَ شواهِد الآمال الموؤدة فى قبور الواقع المرير وأطلال الأحلام الواهِمة فى رحمة القدر الظلوم وبقايا الأمانى الذابلة فى جنبات الخيال المُقفرْ الكئيب .. وفى جحيم الأشجان الدافِقَة بلَوْعَة الحرمان وحَسْرة الحنين ومرور الزمن وشقْوَة المسير ومرارة الذكرى وتعاسة المصير .. وفى دياجير اليأس الحالِكَة حَيثُ تغيب أحلامُ الخيال المُتْرَعَة بالسعادة والفرح والسكينة وتضيع آمالُ العقل فى مستقبل واعِدْ مُضىء .. وبين أطياف الذكرى الشاحبة وأطلالها الدامِعَة التى تتردَّد أصداؤها فى الآفاق بلا مُجيب غير السكون والفراغ والعدم الرهيب .. وفى قِفار الوجود الموحشة الخالية من الحياة حيث تمْضى نفسُ ُ بائسة هَدَّتها رحلة عذاب فى جحيم عُمْرٍ تعيس وهى تخشى ما تُخَبِئه لها الأيام وتتوجس مِما تدَّبره لها الأقدار وتترقبُ فى فزع مصيرَها فى نهاية الطريق .. فى خِضم هذا العالم المُرَّوِّع الذى لا يضُمُّ سواه كان يحيا أو يموت .. ففى مثلَ دُنياه هذه لم يكن يرى فرقاً بين الموت والحياة .. ولا يجدَ فيها عزاءاً غيرَ ما يظلُّ يُردِّده لروحه وعقله ونفسه وقلبه بلا كلل وبغير ملل من أنَّ كلَّ شىءٍ إلى زوال ولن يبقى منه سِوَى الذكرى ولذا فما من داعٍ للحسرة على فتنة الحياة وما من جدوَى يَجْنيها من تخيُّل النهاية والمآل. فالحياة تمضِى والعمرُ يَذوى والشَيْبُ يَدُّبُّ فى القلوب ولا يبقى غيرُ الذكرى ، والزمن يجْرى والربيعُ يأتى ثم يحُلُّ الخريف ولا يبقى غيرُ الذكرى ، والزهور تنبت وتزهو بعَرْف العَبير ثم يَعْتَريَها الذبولُ ولا يبقى غيرُ الذكرى ، والإنسان يُولَد ويحيا ثم يموت ولا يبقى غيرُ الذكرى ، حتى الحُّب الصادق يأتى ويفيضُ بالفرح والسعادة والهناء ويغمر الوجودَ بالأمل والبهجة والضياء ثم يمضى فى طريقه ولا يبقَى غيرُ الذكرى ، فهكذا خُلِقَ كلُّ شىءٍ فى هذه الحياة وهكذا سَيمضى كلُّ شىءٍ فى هذا الوجود إلى منتهاه وهو لا يملك له شيئاً. وكان يظلُّ يُردِّد لنفسه هذه الترَّهات حتى تخنقه العَبَرات ويصبح عاجزاً عن الإحتمال ويجدُ نفسَه مُوشِكا على الجنون فينطلقُ هائماً على وجهه ذاهِلاً عَن كلِّ ما حوله مُلتاثاً بشقوة المصير يضربُ على غير هُدىً فى أرجاء الحياة مَفْتونا بأشجان الليل الساحر ومَحْموما بدموع القمر الحزين .. يُجيلُ بصَرَه تجاهَ السماء ونحوَ السحاب وإلى النجوم وصَوبَ التراب وفى وجوه البشَر بغير إهتمام وهو لا يعرف عم يبحث أو ماذا يريد .. فقط يدعو الله أن يمنحَ نفسه السكينة والرضاء بلا مزيد .. وأن يعرفَ إلى أينَ يقوده خياله فى هذه الحياة وَإلامَ ترمِى أقدارُه فى هذا الوجود .. وأن يكُفَّ عَن النظر إلى وَهجَ الحقيقة المُتوارية خلفَ أستار الغَيْب آمِلاً فى إدراك المستحيل .. وأن يعيده إلى فطرته الأولى كما كان .. روحاً بغير عقلٍ أو قلبٍ أو خيال .. نعم .. هكذا كان يدعو الله دَوْما أن يعودَ كما بدأ .. روحا بغير عقلٍ أو قلبٍ أو خيال.

